سر أبي الهول

مسرحية شعرية في أربعة فصول

للشاعر الفرنسي سوريس رستان

بقلم الأستاذ خليل هنداوي

أبو الهول — سلني إذاً عما تطلب ؛ أنا مصغ إليك :

باريس — نريد أن تعلمنا سرك ؛ وهو أكبر الأسرار في هذا الطريق ، وهو السر الوحيد في هذا الوجود

أبو الهول — لقد قلت لكما ...

باريس — يجب أن تنبئنا ...

أبو الهول — كنت إخالك أكثر شجاعة وأقسى قلباً ؛ إلى : فان وجهك — تحت شعاعي الذي يواريه ظلك — يشبه وجه أوديب ، فكن حذراً

باريس — أنا مثله حاشا ؛ لا أخشاك !

أبو الهول — أدن يا مارسلليوس !

مارسلليوس — أجد بعض التأثير على قلبي

أبو الهول — أهذا السر جئتما !

مارسلليوس — وهو الذي جشمنا العناء

أبو الهول — (ويراه الأحدث سناً ، فيلتفت إليه برأفة)

إنك تشبه قيصر الصغير ، إنه ظل ذهب ولم يعد

باريس — لم نأت لهذا ، يجب ألا نحوم حول الهوة التي تريد القاءنا فيها . إن صوتك تارة يتباعد وتارة يصبح بشرى اللهجة . إننا لم نأتِ لهذا ،

بل جاوزه الى أمي الرؤوم ثم سل حاجتك تقضها لك ، وتعدك الى وطنك مهما كان سحيقاً نائياً .. أثر في سميمها عامل الخير والمحبة ، تردك الى آلك وذويك وبلادك .. وسلام عليك »

ثم إنها ألهبت ظهور البغال فانطلقت تعدو مولية عن النهر الذي صار يبتعد قليلا قليلا . . وكانت نوزيكا آخذة بزمامها لتكبح من جماحها ، حتى لا تفوت أوديسيوس من ورائها

وكانت الشمس تصبغ بالورس جبين المغرب حينما وصل الركب الى حرش مينرفا المقدس ، الذي نهض حوره الباسق في السماء نضراً ملتفاً كأنما يناجي ابنة جوف ، المدرعة بالجبس

وهنا . . . وقف أوديسيوس يصلي لمينرفا :

« يا ابنة جوف القوي المتعالي اسمعي لي ! أصيخي الآن يا ربة ! لقد تصاممت عني إذ كانت اللجج تلففني فراعيني الآن ! اجعلي لي مرفقاً في أمري ، وهبي لي محبة ورحمة من قلوب أبناء الفياشيين أنسى بها آلامي . . (آمين آمين :)

ولبت ربة الحكمة واستجابت لدعائه . بيد أنها احتراماً لعمها (نبتيون) الذي لا يفتأ يقتفي أثر أوديسيوس ، عدوه الأكبر لم تشأ أن تبدو له

(يتبع) دريني خشبة

وأنت تدرى أننا لا نحفل بشأن الملوك الفانين ، والآلهة الغابرين ... نريد سر هذا الكون البعيد . أنت تعرفه ؟ فقل لنا !

أبو الهول — وإذاً ...

باريس — قل لنا على أى حال !

أبو الهول — (بعد لأى) لا ...

باريس — هذه كلمتك الأخيرة ؟

أبو الهول — ما أجمل هذا التحدى ؟ وإذا كان توقفى عن الكلام ..

باريس — كفاك ..

أبو الهول — وإذا كان من حسنة العالم بالغيب أن يبقى ساكتاً ! وإذا كان التراب سيواريكم غداً فلماذا تعيشون ؟ وإذا كان صمتى أسمى ماتعطيه رحمتى

باريس — كفاك كذباً ومهانا !

أبو الهول — وإذا كان سكونى فى الليل أكبر ما يمنحه قلبى الهادىء ؟ وإذا كانت الحياة الخالية من المعرفة خير وسيلة ..

باريس — (يذهول)

كيف تستطيع أن تعرف قلوباً كقلبى . يمكننى أن أحتمل كل شىء !

أبو الهول — إنك تظن ذلك أيها البطل ! « همات » كان يقلب جمجمة فى المقبرة بكفه ولكنه كان لا يدرى الكلمة النهائية حين كان يقلب ! ربما كان فى الشك سعادة : فاحفظ ذلك وامض لطيتك !

باريس — لا أريد أن أبرح المكان !

أبو الهول — يا للضحية التاعسة ! ولكنى سأصمت ..

باريس — صمتك جريمة

أبو الهول — تقول : جريمة ! دون أن تعرف أى سر أواريه فى أثوابى !

باريس — كلما أمعنت فى الفرار منى زدت عزماً ! لا سر يميت الروح المنيرة ! النزوح ! أريد — منك — بياناً أيتها الشملة التى تهافت على نارها فراشات كثيرة

أبو الهول — أيها الطالب الغرق فى سبلى : هل نظرت — أية درجة بلغ الشحوب فى وجهى ؟ تعال وانظر إلى أشعة القمر وانهم ! فالسر الذى أكتمه هل يخلق هذه النشوة التى تودع فى هذا الشحوب الذى يزيد تفكيره وتأمله كلما زاد تأمله . تعال انظر على شعاع نارك الذاهله ، أتريد دائماً أن تعرف الأشياء التى أعرفها ؟ هل تريد دائماً أن تغرق فى روحى الباعثة على الروع ؟ هل تريد الحقيقة الأكثر يأساً ؟

نعم ! هل تريدها دائماً يا باريس ؟ بعدما رأيتنى وعلمت أنى أكثر الكائنات يأساً لأنى أكثرها خلوداً !

باريس — نعم : أريدها

مارسلليوس — نعم : نريدها ، نريدها

أبو الهول — مع كل ذلك ؟

الاثنان — مع كل ذلك

أبو الهول — لا شىء يستطيع أن يحيا بعد معرفة لغزى ! لا يستطيع ..

الاثنان — تكلم !

باريس — أريد ذلك

مارسلليوس — أريد أيضاً

أبو الهول — لا أستطيع أن أجيبكما معاً !

مارسلليوس — ماذا تقول ؟

أبو الهول — انتخبا أحدكما !

مارسلليوس — باريس ..

أبو الهول — (بعد صمت طويل)

مارسلليوس !

مارسلليوس — أخى ! لقد اصطفانى الآلهة الحجرى ...

باريس — ستقول لى ما يحدثك به

مارسلليوس — ولماذا هذا الانتقاء الغريب الذى آثرته ؟

أبو الهول — فى اللحظة التى ستعرف فيها هل تضطرب أحياناً ؟

مارسلليوس — لا أحد منا يخشى ! إن هناك ظماً شديداً !

باريس — اذهب وليبداً ! امض يا أخى المحبوب ! يا قطعة من قدرى ! يا خفقة مضطربة من صباحى ! اذهب واقتطف الحقيقة . . . هى لنفسى أيضاً ... الحقيقة

مارسلليوس — (بذهول وغبطة)

يا أخى ، يا قطعة من ذهب ونار ! أليس قلبى قلبك ؟ إننى فى طريق المعرفة ... يا المساء البهى ! إن هذا يكفر عن المشقة التى تحملناها . سأعرف الكلمة ، كلمة العلم الانسانى

أخى ! يُشبه لى أن كوكباً جديداً سطع فى دمى

سأعلم كل الحقائق العميقة ، فقبلنى قبلة عميقة عنيفة يا أخى الأوحد ! إن رعشة عميقة تتمشى فوق ذوائب النخيل . . . لقد كنت على حق يوم هجرتُ مصنعى وحبيبتى ، وروما وفنونى وليالى الحب

(يرقى ويقف على أبى الهول)

إلهى ! إن قلبى يدق سريعاً ، والصحراء — يخيل إلى — أنها زادت آماداً ... إنى أقدم عليك يا أبا الهول ، وروحى المتيقظة الآن تصعد إليك أيها النور العجيب ! أرقى إليك ... أقبل عليك ... وأتمسك ...

(يرقى مارسلليوس إليه ، وكان الليل شاملا . . . ينحنى على فمه ليقول له السر ، وباريس يتأمل جميع حركات هذا اللفيف من الخلود والفناء ، مارسلليوس يصغى ، وتراه يصفر لونه تحت ضوء القمر ، ثم تنطبق عيناه وتنخذل قواه كمن أصيب بصاعقة)

باريس — (ملقياً بنفسه على جثة أخيه)

النجدة ! النجدة ! مارسلليوس ! ليس هذا بحقيقة . أخى لا تغلق هكذا جفنيك ! كلمنى . . . أجبنى ! ها أنا باريس يناديك باكياً ...

(يفكر فجأة أمام الجثة فى الكلمات اللاتينية التى كان يلفظها الفم الحى ويرددها)

إنك ستغدو كمارسلليوس !

(بألم وبكاء)

هل جئت بك من إيطاليا إلى الصحراء ، إلى الموت ، إلى الكآبة ؟

ألا تنفس قليلاً وأجبنى خلاك ذم ! إننى محبك !

أبو الهول — لقد مات إلى الأبد ! أجل ! مات إلى الأبد !

(الليل قاتم الأحشاء ولا نغمة فى السماء . أبو الهول وحده يسمع أنين الباكى)

إنه هجر هذه الأرض ، حيث يهوى كل شىء ، هذه الأرض حيث نطأ تراب قبورنا . انظر إلى السماء التى لا تحد ؛ إن فى منتصف هذه الليلة آلاف الكواكب المروعة كانت ترتجف كأنها عيون متطلعة على مصائبنا . إنها كلة ؛ بل كلة بسيطة رُجِّمت فى الليل ، وهذه الظلمة

انتشرت سدولها فى كل مكان . لأن السر الأعظم الذى أواريه تحت نقابى يميت القلوب ، ويطفىء النجوم

باريس — لتسمعنى سماء خامدة النور !

أبو الهول — لن يصعد شهيقك إلى السماء !

باريس — اصمت ! اصمت أيها المارد المرعب ؟

أبو الهول — لقد بدلت لهجتك ...

باريس — لهذا الأمر أعجبك هذا الفتى ...

أبو الهول — كل من أفشيت لهم سرى الحقيق هلكوا دون أن يفوهوا بلفظة . . . وهذا واحد منهم

باريس — اصمت ...

أبو الهول — ليس فى هذا المنظر شىء عندى ! ولقد أضحك أمام ميت !

باريس — وميتان يزيدان إعجابك ، إذا لا مرية فيه ، لأنك ستكلمنى بدورى ! بهذا الجسد المتمزق وهاتين العينين الهامدتين ألا ما تكلمت وحدثتنى ! لأننى مصر على ذلك . فان قلبه الهالك لأكثر معرفة من فؤادى الحى . وعيناه المغمضتان المحدقتان قد ملأتهما اللانهاية

(يرقى باريس إلى التمثال كما صنع مارسلليوس ، وفى هذه اللحظة توافيه إيزابيلا وتصعد برداء أبيض شفاف)

المشهد الرابع

باريس ، مارسيللوس (طريحاً على قدمى أبى الهول) ، أبو الهول ، إيزابيلا

إيزابيلا — (بصيحة شديدة)

باريس ! لا تصغ إليه !

باريس — إيزابيلا !

إيزابيلا — حنانيك ! لقد وجدت آثارك على الرمال المتقلبة !

لقد هلك مارسيللوس — أتريد رجلاً آخر يهلك بعده ؟

تعالى إلىّ ! وفر من هذا المكان الذى يهيمن عليه الموت ، واهرب من هذا السر القاتل ! وانج من هذا الموت الذى يخرج من قلبه . . . إنى سأحمل إليك الفرار — يا حبيبى باريس !

أبو الهول — (بصوت ليس أعذب)

إنه لن يصغى إليك وان يسمع نجواك ! هو لى ، ولا شىء يستطيع أن يستنقذه منى

إيزابيلا — ألم أكن جميلة بمقدار ؟ ألم أكن رقيقة وحنوناً ؟

باريس — (مبتعداً عن أبى الهول قليلا قليلا)

إيزابيلا !

أبو الهول — أما تشاء أن تعرف سرى ؟ أغلب عليك الوجل ؟ أراك أصبحت شاحب اللون باهت الوجه ! لقد رن صوت ملتهب هادماً السحر الذى يربط قلبينا . . . اذهب أيها الهيوب الخاشى ميتة مثل ميتة أخيه

باريس — (إيزابيلا تتعلق به)

لا لا ! دعينى . . .

إيزابيلا — باريس

باريس — أود أن أعلم . . .

أبو الهول — إذهب أيها الهالك ، واضرب لعشيقتك موعدا فى مساء

إيزابيلا — لدى من القبلات الحية التى تبعثها المحبة الملتهبة !

أبو الهول — ولى — فى الليل — صوت الرنان ذو الأسرار

إيزابيلا — اذكر سعادتك ، والأيام التى قضيتها فى حبى !

أبو الهول — إنى أعرف قبلة لا تنتهى أبداً

باريس — لا لا . . . أريد أن أعلم !

(يعود إلى أبى الهول)

إيزابيلا — (متوسلة إلى أبى الهول)

آه يا ملاك الرمال ! كن أكثر إشفاقاً على منه . ألا تبصر — إزاءك — امرأة تبقى البقاء طيلة هذا الخلود الشاع البارد : لا أملك إلا هذه اللحظة الانسانية التى تصرمنى ... فالقرون — لديك — تتراكم تائهة حائرة . يمضى فريق ويعود فريق ! أفن هذه القرون إذا كان ثلك الخالد لا يمنح إلا الموت للحب الذى يناديه !

أما هذا فلا تذقه الردى — إنك إن تفعل تقض على معه غداً — لا أملك من الزمان إلا عمر حبه ، هو إيمانى الذى أعتقد ، وحياتى ، وكوكبى الصاعد ، الحياة خالية إلا به ... إنك إن تقتله ...

أبو الهول — (لباريس)

اصعد . . .

ايزابيلا — إنك لن تمضى هذه العين التى أعبدها !

إنك

أبو الهول — لقد كنت أتردد فى أمرك ... قد انتهى كل شىء ... سأكلمك !

(يرقى باريس كمارسيللوس ويودعه سره)

باريس — (وهو يسمع كلماته)

إننى أسمع ... أسمع . . وبعد . وبعد . وبعد !

(عاد الى إيزابيلا الشاحبة ، وهو يكاد يسقط على الأرض كمارسيللوس)

آه ... إننى مائت لا محالة !

(شاحب اللون ، كأنه يرتقب أجله . لكنه فجأة يفهم أنه لا يزال حيا ، وبصيحة الظفر) :

إنى أحيا ...

أبو الهول — (بتعجب)

ولماذا لم تمت ؟ وبأى حق تظل فى الحياة ؟

باريس — أنا حى ...

أبو الهول — لا يعيش من يعرف سرى !

باريس — أنا حى ...

أبو الهول — أتحيا عارفاً الكلمة التى تهتز لها فتى ؟ لا يقدر أحد على ذلك !

باريس — أنا أول من يقدر !

أبو الهول — لن تقدر ! وما قدر أحد على ذلك . الكل يجهلون سرى ...

باريس — عرفت سرك ولا أزال أحيا . . . نعم ! لا أزال أتنفس وأحيا ! وأنت أيها الحبيب الضعيف العزم لأنك لم تستطع أن تطبق عينيك على السر ؛ يا رفيق صباى ، نم هادئا قرير النفس ! إنى سأنجز وعدى ، وسأعود الى ابداعى الأول ، فالعمل وحده يذهل عن الألم الكبير . ومن أجلك أيها الوجه الشاحب ، سأجعل جوابى على سر الموت قطعة تتدفق فيها الحياة . وهكذا تظل حياً فى آثارى وابتكارى ..

(يقترب من جثة مارسيللوس وبرقة زائدة وحنان عميق مؤثر حمله وألقت ايزابيلا موشحها على وجهه الشاحب وقبل أن يبتعد أجهش بالبكاء ، وودع أبا الهول) :

— وداعاً

(باريس يتوارى وخلفه إيزابيلا ، وبعد لحظة يظهر أبو الهول ، يقهقه ضاحكا قائلا بنفسه) :

— لم أقل الحقيقة إلا لمارسيللوس !

الستار

خليل لشندارى

طبعت بمطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر